# أســـرار الحـــج

ومن رام نفرا بعد نسك فإنني     مقيم على نسكي حياتي بلا نفر

# □ أسرار الحج □

اعلم يا أخي حتى يكمل لك الحج وتُعطى ثوابه ، أنه مع إتيانك بشعائر الحج الظاهرة وتعظيمها فلا بد من مراعاة للباطن ، فسير القلوب أبلغ من سير الأبدان ، فكم واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت ، وكم من قاعد على فراشه في بيته ، وقلبه متصل بالملأ الأعلى .

جسمي معي غير أن الروح عندكم فالجسم في غربة والروح في وطن

قال بعض العابدين : عجبا لمن يقطع المفاوز والقفار ليصل إلى البيت فيشاهد آثار الأنبياء ، كيف لا يقطع هواه ليصل إلى قلبه فيرى فيه أثر « ويسعني قلب عبدي المؤمن »[1].

أيها المؤمن إن لله بين جنبيك بيتا لو طهرته ؛ لأشرق ذلك البيت بنور ربه وانشرح وانفسح .

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
ومريضًا أنت عائده قد أتاه الله بالفرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

وتطهيره تفريغه من كل ما يكرهه الله تعالى من أصنام للنفس والهوى، ومتى بقيت فيه من ذلك بقية ، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك، وهو لا يرضى بمزاحمة الأصنام .

قال سهل بن عبد الله: حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله.

أردناكم صِرْفاً فلما مزجتمُ بعدتم بمقدار التفاتكم عنا
وقلنا لكم لا تُسكنوا القلب غيرنا فأسكنتم الأغيار ما أنتمُ منا

(١) من الإسرائيليات . ذكره ابن القيم .

ويرحم الله القائل :

إليك قصدي ربِ البيت والحجر — فأنت سؤلي من حجي ومن عمري
إليك قصدي قبل البيت والأثر — وقبل سعيي بأركان وبالحَجَرِ
صفاءُ دمعي الصفا لي حين أعبره — وزمزمي دمعة تجري من البصر
عرفانكم عرفاتي إذ منى منن — وموقفي وقفة في الخوف والحذر
وفيك سعيي وتطوافي ومزدلفي — والهدْي جسمي الذي يغني عن الجزر
ومسجد الخيف خوفي من تباعدكم — ومشعري ومقامي دونكم خطري
زادي رجائي لكم ، والشوق راحلتي — والماء من عبراتي والهوى سفري[1]

يقول أحد الزهاد: الحج هو القصد، فقصد إلى بيت الحق، وقصد إلى الحق.

وكما أن الذي يحج بنفسه يُحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من أراد أن يكمل له الحج مع إتيانه بهذه الشعائر ، يحج بقلبه ، فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله على ثوبي صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المنى ، وما في هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج العجّ والثجّ ؛ فالثجّ : صَبُّ الدم ، والعج : رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ، ثم الوقوف بسَاحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة ، وموقف النفوس عرفات ، وموقف القلوب الأسامي والصفات ، ثم طواف القلوب حول نعوت الجلال وصفات الكمال ، والسعي بالأسرار بين صَفَّيِّ الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات والمنى والعارضات .. بكل وجه .

---

(١) المدهش ص ١٤٥ ، لطائف المعارف ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

يقول أحد الزهاد: قال تعالى: ﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾.

والحصر بأمرين : بعدو أو مرض .

فليعلم أنه إنْ استولى عدو النفس ؛ لم تجد بدًا من الإناخة بعقوة[1] الرحض ، فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار ، إذ لا مزاحمة مع الحكم .

وإن مرضت الواردات وسَقِمت القصود ، وآل الأمر إلى التكليف ؛ فليجتهد ألا ينصرف ، كما أنه في الشعائر يجتهد إلا ينصرف لكل مرض ، أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك بشرط الفدية .

ثم إن عجز اشترط أن محله حيث حبسه، فكذلك يقوم ويقعد في أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع – والعياذ بالله– لم يُقابل إلا بالرّد والصد ، كما قيل :

فَلَا عَنْ قِلّيٍ كان التغرّب بيننا ولكنه دهر يشتّ ويجمـعُ

وقال الآخر :

ولستُ وإن أحببتُ مَنْ يَسْكنُ الفضا بأول راجٍ حاجة لا ينـالها

○ لطيفـة ○

• ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ :

إذا أتت أيام الحج ؛ انجلت غيابة الحجبة عن شموس القرب والوصلة ،وأشرق نور الإقبال في تضاعيف أيام الوقفة ، فليستأنف للوصلة وقتا ، وليفرش للقربة بساطا ، وليجدد للقيام بحق السرور نشاطا ، وليقل : حيّ على الفلاح والبهجة ! فقد مضت أيام المحنة .

يا أخي ، كما أن الحج أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها ، ولا يجوز فعل الحج في جميع مراحل السنة إلا في وقت مخصوص ، من فاته ذلك الوقت فاته الحج ، فكذلك يا أخي فعليك بمراعاة قلبك وقصدك في أيام شبابك ، فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه ؛ فليست له وصلة في حال مشيبه ، قالت حفصة

(١) العقوة : الموضع المتسع أمام الدار ، أو المحلة ، أو حولها .

بنت سيرين : يا معشر الشباب ، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب.

○ لطيفة ○

• ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ :

قال أحد العلماء : لا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك في الظاهر ، لا بلبسة ولا بصفة، بل تكون كواحد من الناس، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئا، أوْ بك أوْ لك أوْ معك شيء فاستغفر الله، وجدِّدْ إيمانك فإنه شرك خفي خامر قلبك.

○ لطيفة ○

• ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾ :

قضاء المناسك قيام بالنفس ، ﴿ فاذكروا الله ﴾ قيام له بالقلب على استدامة الوقت ، واستغراق العمر .

ويقال : كما أن الأغيار يفتخرون بآبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم ؛ فليكن افتخاركم بنا واستبشاركم لنا .

إن كان لآبائكم عليكم حق التربية، فحقنا عليكم أوجب، وأفضالنا عليكم أتم.

إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال .

إنك لا تمل ذكر أبيك ، ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاستدم ذكرنا ، ولا تعترضنك ملالة أو سآمة أو نسيان .

إن طعن في نسبك طاعن لم ترض ، فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبدع ، فذُبّ عنا .

الأب يذكر بالحرمة والحشمة ، فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية . قال ﴿ كذكركم آباءكم ﴾ ولم يقل أمهاتكم ؛ لأن الأب يُذكر احتراما ، والأم تُذكر شفقة عليها ، والله يَرحم ولا يُرحم .

﴿ أو أشد ذكرا ﴾ لأن الحق أحق ، ولأنك قد تستوحش كثيرا عن أبيك ، والحق سبحانه منزه عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضي الواجب حتى إن كان ذرة .

﴿ كذكركم آباءكم ﴾ : الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه[1].

• **الدهلوي وأسرار الحج :**

قال الدهلوي في [ حجة الله البالغة ] في باب أسرار الحج :

« اعلم أن حقيقة الحج اجتماع جماعة عظيمة من الصالحين في زمان يذكر حال المنعم عليهم من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ومكان فيه آيات بيّنات ، قد قصده جماعات من أئمة الدين معظّمين لشعائر الله متضرعين راغبين ، وراجين من الله الخير ، وتكفير الخطايا ، فإن الهمم إذا اجتمعت بهذه الكيفية ؛ لا يتخلف عنها نزول الرحمة والمغفرة ، وهو قوله ﷺ : « ما رؤي الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة » .

وأصل الحج موجود في كل أمة ، لا بدّ لهم من موضع يتبركون به لما رأوا من ظهور آيات الله فيه ، ومن قرابين وهيئات مأثورة عن أسلافهم يلتزمونها ؛ لأنها تذكر المقربين وما كانوا فيه ،وأحق ما يُحج إليه بيت الله فيه آيات بينات ، بناه إبراهيم صلوات الله عليه المشهود له بالخير على ألسنة أكثر الأمم بأمر الله ووحيه ، بعد أن كانت الأرض قفرا وعرا ، إذْ ليس غيره محجوجًا إلا وفيه إشراك ، أو اختراع ما لا أصل له .

ومن باب الطهارة النفسانية الحلول بموضع لم يزل الصالحون يعظمونه ويحلونه فيه ويعمرونه بذكر الله ، فإن ذلك يجلب تعلق همم الملائكة ، ويعطف عليه دعوة الملأ الأعلى لأهل الخير .

(١) بتصرف من لطائف الإشارات ١ /١٦٣ - ١٦٩ .

ومن باب ذكر الله تعالى رؤية شعائر الله وتعظيمها ، فإنها إذا رؤيت ذكر الله ، كما يذكر الملزوم اللازم ، لا سيما عند التزام هيئات تعظيمية ، وقيود وحدود تنبه النفس تنبيها عظيما ، وربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق ، فيحتاج إلى شيء يقضي به شوقه فلا يجد إلا الحج ، وكما أن الدولة تحتاج إلى عرضة[1] بعد كل مدة ليتميز الناصح من الغاش ، والمنقاد من المتمرد ، وليرتفع الصيت ، وتعلو الكلمة ، ويتعارف أهلها فيما بينهم ؛ فكذلك الملة تحتاج إلى حج ؛ ليتميز الموفق من المنافق ، وليظهر دخول الناس في دين الله أفواجا ، وليرى بعضهم بعضا ، فيستفيد كل واحد ما ليس عنده ، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والترائي ، وإذا جعل الحج رسما مشهورا ؛ نفع عن غوائل الرسوم ، ولا شيء مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة، والتحضيض على الأخذ بها.

ولما كان الحج سفرا شاسعا ، وعملا شاقا ، لا يتم إلا بجهد الأنفس ؛ كان مباشرته خالصا لله ، مكفرا للخطايا ، هادما لما قبله بمنزلة الإيمان[2].

## • ومن أسرار الحج ومعانيه[*] :

يقول الغزالي : اعلم أن أول الحج فهم موقع الحج من الدين ، ثم الشوق إليه ، ثم العزم عليه ، ثم قطع العلائق المانعة منه ، ثم شراء ثوب الإحرام ، ثم شراء الزاد ، ثم اكتراء الراحلة ، ثم الخروج ثم المسير في البادية ، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ، ثم دخول مكة ، ثم استتمام الأفعال .

وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر ، وعبرة للمعتبر ، وتنبيه للمريد الصادق ، وتعريف وإشارة للفطن ، فلنرمز إلى مفاتحها، حتى إذا انفتح بابها ، وعرفت أسبابها ؛ انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه

---

(١) اختبار .

(٢) حجة الله البالغة .

(*) نحن متعبدون شرعًا بشرائع ديننا ، وإن لم نفهم الحكمة والسر في التشريع، فتعظيم الشرائع لكونها شرائع من عند الله أولًا .

وطهارة باطنه وغزارة فهمه :

• **الفهـــم :**

اعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات ، والاقتصار على الضرورات فيها ، والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات .

والله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله ، والتصديق بكتبه ، والخشوع لوجهه، والاستكانة لأمره، والاستسلام لطاعته ، أمورًا له خاصة لا يشوبها من غيرها شائبة، وكلمّا كانت البلوى والاختبار أعظم ، كانت المثوبة والجزاء أجزل[1] .

ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأُولين من لدن آدم ، صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما ، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا ، وأقل نتائق الأرض مَدَرا ، وأضيق بطون الأودية قُطْرًا ، بين جبال خشنة ، ورمال دَمِثَة ، وعُيُون وَشِلة ، وقرى منقطعة ، لا يزكو بها خُفّ ، ولا حافر ولا ظِلْف . ثم أمر آدم وولده أن يَثْنُوا أعطافهم نحوه ؛ فصار مثابة لمنتجع أسفارهم ، وغاية لمُلْقى رحالهم ، تهوى إليه ثمار الأفئدة ، من مفاوز سحيقة ، ومهاوي فجاج عميقة ، وجزائر بحار منقطعة ، حتى يهزوا مناكبهم ذُلُلا ، يهلّون لله حوله ، ويَرْمُلُون على أقدامهم شعثا غبرا له ، قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم ، ابتلاءً عظيما ، وامتحانا شديدا ، واختبارا بيّنا وتمحيصا بليغا ، جعله الله سببا لرحمته ، ووُصلة إلى جنته .

والله يختبر عباده بأنواع الشدائد ، ويتعبّدهم بأنواع المجاهد ، ويبتليهم بضروب المكاره ، إخراجا للتكبر من قلوبهم ، وإسكانا للتذلل في نفوسهم ، وليجعل ذلك أبوابا فُتُحا إلى فضله ، وأسبابًا ذللًا لعفوه .

---

(١) إحياء علوم الدين .

فأول الأمر المجاهدة ، وأول الفهم عن الحج : ترك اللذات الحاضرة طمعا في الآخرة .

والله تعالى جعل الحج رهبانية لهذه الأمة فهو أحد نوعي الجهاد ، وشرَّف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، ونصبه مقصدًا لعباده ، وجعل ما حواليه حرما لبيته تفخيما لأمره .

وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره ، ووضعه على مثال حضرة الملوك ، يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثا غبرا ، متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له خضوعا لجلاله ، واستكانة لعزته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم ، وأتم في إذعانهم وانقيادهم ، ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول؛ كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار.

وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فإن الزكاة إرفاق وجهه مفهوم ، وللعقل إليه ميل .

والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل .

والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل .

فأمّا ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال ، فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها .

فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلّا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط ، وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف للنفس والطبع عن محل أنسه ، ولو لم يكن في الحج إلا تحجيم العقل لكفى ، فالشرع

لا يصطدم بالعقل ، بل بفسح له مجالاته التي خلقه الله لها ، ولا يجعله يطغى ، والشرع يخبر بمحارات العقول لا بمحالات العقول .. فكف العقل عن غير مجاله أولى .

من أنت يا رِسْطُو ومَنْ أفلاط قَبْلَكَ يا مبلد ومن ابن سينا حين قَرَّرَ ما هديت له وأرشدْ
هل أنتمُ إلا الفراشُ وقد رأى نارًا تَوَقَّدْ فدنا فأحرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد

إن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معينا للأمر ، وباعثا معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ، لبيك حقا حقا تعبدا ورقا .

وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم ، وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد ، وعلى مقتضى الاستعباد ، كان ما لا يُهتدى إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس ، وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق مقتضى الاسترقاق .

وإذا تفطنتَ لهذا فهمتَ أنّ تَعَجُّبَ النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى .

• **الشوق إلى الحج :**

وأما الشوق: فإنه ينبعث بعد الفهم والتحقيق بأن البيت بيت الله عز وجَلّ، وأنه وُضع على مثال حضرة الملوك ، فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له ، وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضيع زيارته ، فيرزق مقصود الزيارة في ميعاده المضروب له ، وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار من حيث إن العين القاصرة الفانية في دار الدنيا لا تتهيأ لقبول النظر إلى وجه الله عز وجل ، ولا تطيق احتماله ، ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها

إنْ أمدت في الدار الآخرة بالبقاء ، ونزهت عن أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ، ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم ، فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة .

هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل مَا لَهُ إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجل ، فبالحريّ أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة ، فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

• **العزم على الحج :**

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصد إلى مفارقة الأهل والوطن، ومهاجرة الشهوات واللذات ، متوجه إلى زيارة بيت الله عز وجل ، وليعظم في نفسه قَدْر البيت وقدر رب البيت .

وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه، خطير أمره، وأنَّ من طلب عظيما خاطر بعظيم، وليجعل عزمه خالصا لوجه الله سبحانه بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة.

وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص ، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه والمقصود غيره ، فليصحح مع نفسه العزم ، وتصحيحه بإخلاصه ، وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسمعة ، فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

• **قطع العلائق :**

معناه رد المظالم ، والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي ، فكل مظلمة علاقة ، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول له : إلى أين تتوجه ؟ أتقصد بيت ملك الملوك ، وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ، ومستهين به ، ومهمل له ؟ .

أوَ لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن

كنت راغبا في قبول زيارتك فنفذ أوامره ، ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصي ، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك ؛ لتكون متوجها إليه بقلبك ، كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك ، فإن لم تفعل ذلك ؛ لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء ، وآخرا إلا الطرد والرد .

وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه ، وقدر أن لا يعود إليه ، وليكتب وصيته لأولاده وأهله، فإن المسافر وماله لعَلَى خطر إلا من وقى الله سبحانه، وليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة ، فإن ذلك بين يديه على القرب ، وما يقدمه من هذا السفر طمع في تيسير ذلك السفر ، فهو المستقر وإليه المصير ، فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

• الـــزاد :

وأما الزاد فليطلبه من موضع حلال ، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره ، وطلب ما يبقى منه على طول السفر ، ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد ، فليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده التقوى ، وأنّ ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا محتاجا لا حيلة له .

فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت ، بل يفسدها شوائب الرياء ، وكدورات التقصير .

• الراحلـــة :

وأما الراحلة إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى ، وتخفف عنه المشقة ، وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة ، وهي الجنازة التي يحمل عليها ، فإن أمر الحج من وجه

يوازي أمر السفر إلى الآخرة ، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادًا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه ، وما يدريه لعل الموت قريب ، ويكون ركوبه للجنازة قبل ركوبه للراحلة ، وركوب الجنازة مقطوع به ، وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه ، فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ، ويستظهر في زاده وراحلته ، ويهمل أمر السفر المستيقن ؟ .

قدم ابن عم لمحمد بن واسع عليه فقال له : من أين أقبلت ؟ .

قال : من طلب الدنيا . قال له : وهل أدركتها ؟ قال : لا ، فقال له محمد ابن واسع : أنت تطلبُ شيئا ولم تدركه ، فكيف تدرك شيئا لم تطلبه ؟! .

## ○ لطيفة ○

قال الدهلوي في معنى : « من ملك زادا وراحلة ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا » .

قال : « ترك ركن من أركان الإسلام يشبه بالخروج عن الملة ، وإنما شبه تارك الحج باليهودي والنصراني ، وتارك الصلاة بالمشرك ؛ لأن اليهود والنصارى يصلون ولا يحجون ، ومشركو العرب يحجون ولا يصلون » .

**• لباس الإحـــرام :**

قال الغزالي : « وأما شراء ثوبي الإحرام فليتذكر عنده الكفن ولفّه فيه ، فإنه سيرتدي ويتزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل ، وربما لا يتم سفره إليه ، وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى الله ببيت الله عز وجل إلا مخالفا عادته في الزيّ والهيئة، فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلّا في زي مخالف لزيّ الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب ، إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن » .

قال ابن الجوزي: « أمر المحرمون بالتعري ، ليدخلوا بزيّ الفقراء ، فيبين أثر ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ .

• الخروج للحج :

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا ، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد ؟ وأين يتوجه ، وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له ، الذين نودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا ، واستنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائق ، وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله عز وجلّ الذي فخم أمره ، وعظم شأنه ، ورفع قدره ، تسليا بلقاء البيت عن عدم لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم .

وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول ، لا إدلاله بأعماله في الارتحال ، ومفارقة الأهل والمال ، ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ، ورجاء لتحقيقه وعده لمن زار بيته ، وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل وافدا إليه إذ قال جل جلاله : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** ﴾ [النساء : ١٠٠] .

• الدخول إلى الميقات :

وأما دخول البادية إلى الميقات ، ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة ، وما بينهما من الأهوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطّاع الطريق هول سؤال منكر ونكير ، ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه ، وما فيه من الأفاعي والحيّات ، ومن انفراده من أهله وأقاربه ، ووحشة القبر وكربته ووحدته ، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر .

قال الدهلوي : « الأصل في المواقيت أنه لما كان الإتيان إلى مكة شَعِثا تَفِلا ، وكان في تكليف الإنسان أن يحرم من بلده حرج ظاهر ، فإنّ منهم من يكون قطره على مسيرة شهر وشهرين ، وأكثر وجب أن يخصّ أمكنة معلومة حول مكة يحرمون منها ، ولا يؤخرون الإحرام بعدها ، ولا بد أن تكون تلك

المواضع ظاهرة مشهورة ولا تخفى على أحد ، وعليها مرور أهل الآفاق ، فحكم بهذه المواضع ، واختار لأهل المدينة أبعد المواقيت ؛ لأنها مهبط الوحي ، ودار الهجرة ، وأول قرية آمنت بالله ، فأهلها أحق أن يبالغوا في إعلاء كلمة الله ، وأن يُخَصُّوا بزيادة طاعة الله » .

**• الإحرام والتلبية :**

قال الدهلوي : « الفرق بين المخيط وما في معناه ، وبين غير ذلك : أن الأول ارتفاق وتجمل وزينة ، والثاني : ستر عورة ، وترك الأول تواضع لله ، وترك الثاني سوء أدب » .

ويقول رحمه الله : « اعلم أن الإحرام في الحج والعمرة بمنزلة التكبير في الصلاة ، فيه تصوير الإخلاص والتعظيم ، وضبط عزيمة الحج بفعل ظاهر ، وفيه جعل النفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ ، والعادات المألوفة وترك التجمّل ، وفيه تحقيق معاناة التعب والتشعث والتغبر لله ، وإنما شرع أن يجتنب المحرم هذه الأشياء تحقيقا للتذلل وتركًا للزينة والتشعث ، وتنويها لاستشعار خوف الله وتعظيمه ، ومؤاخذة نفسه ألا تسترسل في هواها ، وإنما الصيد تَلَهٍّ وتوسع ، ولذلك قال النبي ﷺ : « من اتبع الصيد لها » ، ولم يثبت فعله عن النبي ﷺ ولا كبار أصحابه ؛ وإن سوّغه في الجملة ، والجماع انهماك في الشهوة البهيمية ، وإذا لم يجز سد هذا الباب بالكلية ؛ لأنه يخالف قانون الشرع ، فلا أقل من أن ينهى عنه في بعض الأحوال كالإحرام والاعتكاف والصوم » .

قال الغزالي : « الإحرام والتلبية من الميقات معناه : إجابة نداء الله عز وجل فارج أن يكون مقبولا ، واخش أن يقال لك : لا لبيّك ولا سعديك ، فكن بين الرجاء والخوف مترددا ، وعن حولك وقوتك متبرئا ، وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متوكلا ، فإن وقت التلبية هو بداية الأمر ، وهي محل الخطر .

قال سفيان بن عيينة : حج عليّ بن الحسين رحمه الله ، فلمّا أحرم ،

واستوت به راحلته ؛ اصفر لونه ، وانتفض ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبي ، فقيل له : لِمَ لا تلبي ؟ فقال : أخشى أن يقال لي : لا لبيّك ولا سعْديك ، فلما لبَّى غشي عليه ، ووقع عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه .

وليذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته نداء الله عز وجل إذ قال : ﴿ **وأذن في الناس بالحج** ﴾ ، ونداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور ، وازدحامهم في عرصات القيامة ، مجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقربين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين في أول الأمر ، بين الخوف والرجاء، تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا.

**• دخـول مكـة :**

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله آمنا ، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليخش أن لا يكون أهلا للقرب فيكون بدخوله الحرم خائبا ، ومستحقا للمقت ، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالبا ، فالكرم عميم ، والرب رحيم ، وشرف البيت عظيم ، وحق الزائر مرعيّ ، وذمام المستجير اللائذ غير مضيّع .

**• مشاهـدة البيـت :**

وأما وقوع البصر على البيت ، فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه ، وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم ، كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم .

واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة ، وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه ، واذكر عند ذلك إنصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة ، آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه ، فإن

كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة »[١].

يقول الأميري رحمه الله :

ليستِ الكعبةُ مرمى بصري أو مَدى قلبيَ في خفقتهِ
هي صَرْحٌ شامخٌ من حَجَرٍ عِزّةُ التاريخ من عِزّتهِ
أثرٌ يُبرِزُ مَجْدَ الأثرِ مِحورُ الإسلام في دَوْرَتهِ
موئلٌ يَرمُزُ عَبْرَ الدَهرِ لِهوى المؤمن في وِجهتِهِ
وهيَ لي مُنطَلَقٌ للنَّظَرِ يتعالى ثَمَّ مِنْ ذروتِهِ
مُصعِدًا خَلْفَ حُدودِ البَشَرِ مُشْرَئِبٌّ الغوْرِ في صَعْدَتِهِ
يَتَخَطّى فِكَرَ المُفْتَكِرِ هائمًا يَسْرَحُ في بَهْجَتِهِ
نائيًا عن ساحِ دنيا الصُّوَرِ باحثا للرُّوح عن جَنَّتِهِ
دائرًا فوق مَدار القمرِ والنجوم الزُّهْر في رِحلتِهِ
بَصَرٌ قد فاق كُنْهَ البَصَرِ إذْ سَما للهِ في نظْرَتِهِ
حائمًا حول شِعابِ القَدَرِ يتصدّى لسنا بَسْمَتِهِ
بؤْرُ النّور ونُورُ البُؤَرِ منجَمُ الإشراقِ في نَبْعَتِهِ
نظرٌ يَنفُذُ عَبْرَ السُّتُرِ ويرى الحقَّ على فِطْرَتِهِ
من مرائيهِ التماعُ الظَّفَرِ وائتلافُ النور مِنْ وَهْجَتِهِ

ويقول رحمه الله :

الكعبةُ الشَّمّاءُ في مذهبي قيمَتُها ليست بأحجارِها
والقُربُ من خالقها لَيسَ في تَشَبُّثِ المرءِ بأستارِهـا
قُدْسِيَّةُ الكعبةِ في جَمْعِها أُمَّتَنا من كُلِّ أقطارها
وأنَّها مِحْوَرُ أمجادِها وأنَّها مَصْدَرُ أنوارِهَا
وكَعْبَةُ المؤمن في قلبِه يَطُوفُ أنَّى كَانَ في دارِها[٢].

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) صفحات ونفحات عمر بهاء الدين الأميري، من ص ١٦ - ١٩ .

● **الطـواف بالبيـت :**

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة ، فأحضر في قلبك التعظيم والخوف والرجا والمحبة .

واعلم : أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقرّبين الحافّين حول العرش ، الطائفين حوله ، ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت ، بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت ، حتى لا تبتدى الذكر إلا منه ولاتختم إلا به ، كما تبتدىء الطواف من البيت ، وتختم بالبيت .

واعلم : أن الطواف الشريف هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر في عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب ، وأن عالم الملك والشهادة مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح الله له الباب . وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السماء بإزاء الكعبة ، فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت .

● **استلام الحجر الأسود :**

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته ، فصمّم عزيمتك على الوفاء ببيعتك ، فمن غدر في المبايعة ؛ استحق للمقت .

قال بعض السلف : استلام الحجر الأسود هو أن لا يعود إلى معصية .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبّل يمينه » .

وقال عكرمة : « الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن لمن يدرك بيعة رسول الله ﷺ فمسح الركن ؛ فقد بايع الله ورسوله » .

فمستلم الحجر يبايع الله على اجتناب معاصيه والقيام بحقوقه ﴿ **فمن نكث**

**فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيما ﴾** .

يا معاهدينا على التوبة بيننا وبينكم عهود أكيدة :

**أولها** : يوم ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ ، والمقصود الأعظم من هذا العهد : أن لا تعبدوا إلا إياه ، وتمام العمل بمقتضاه : أن اتقوا الله حق تقواه .

**وثانيها** : يوم أرسل إليكم رسوله ، وأنزل عليكم في كتابه : ﴿ **وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم** ﴾ .

قال سهل التستري : من قال : لا إله إلا الله ؛ فقد بايع الله فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه في شيء من أمره في السر والعلانية ، أو يوالي عدوه أو يعادي وليه .

يا بني الإسلام مَنْ عَلّمكم بعد إذ عاهدتمُ نقض العهودْ
كل شيء في الهوى مستحسن ما خلا الغدر وإخلاف الوعود

**وثالثها** : لمن حج إذا استلم الحجر فإنه يجدد البيعة ، ويلتزم الوفاء بالعهد المتقدم : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ . الحر الكريم لا ينقض العهد القديم .

أحسبتم أن الليالي غَيَّــرتْ عقد الهوى لا كان من يتغيّر
يفنى الزمان وليس ننسى عهدكمْ وعلى محبتكم أموت وأحشرُ

إذا دعتك نفسك إلى نقض عهد مولاك فقل لها : ﴿ **معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

حلفت برب البيت لا خنت عهدكم وذلك عهد ما حَييتُ وثيق

تاب بعض من تقدم فهتف به هاتف بالليل :

سأترك ما بيني وبينك واقفا فإن عدت عدنا والوداد مقيمُ
تواصل قوما لا وفاء لعهدهم وتترك مثلي والحفاظ قديم

من رجع من الحج فليحافظ على ما عاهد الله عليه عند استلام الحجر ، ما أوحش ذل المعصية بعد عز الطاعة . ارحموا عزيز قوم بالمعاصي ذلّ ، وغني قوم بالذنوب افتقر ، اللهم إنا نسألك الثبات إلى الممات ، ونعوذ بك من الحور بعد الكور .

كان الإمام أحمد يدعو : « اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك » ، وكان عامة دعاء ابن أدهم « اللهم انقلني من ذل المعصية إلى عز الطاعة » .

**• التعلق بأستار الكعبة :**

أما التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حبا وشوقا ، للبيت ولرب البيت ، وتبركا بالمماسّة ، ورجاء للتحصن عن النار ، في كل جزء من بدنك لا في البيت ، ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، كالمذنب الذي يتعلق بثياب من أذنب إليه ، المتضرع إليه في عفوه عنه ، المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ، ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه ، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو ، وبذل الأمن في المستقبل .

الحَجَرُ الأسودُ قَبَّلْتُهُ ... بشَفَتَيْ قلبي ، وكُلِّي ولَهْ
لا لاعتقادي أنَّهُ نافعٌ ... بل لُهيامي بالذي قَبَّلَهْ
محمدٌ أطهَرُ أنفاسِهِ ... كانت على صَفْحَتِهِ مُرْسَلَهْ
قَبَّلَهُ ، والنور من ثَغْرِهِ ... يُشْرِقُ آياتِ هُدىً مُنْزَلَهْ
قَبّلتُ ما قَبَّلَهُ ثغرُهُ ... الناطق بالوحي : ابتغاءَ الصِّلَهْ

**• السعي بين الصفا والمروة :**

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت : فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاهبا مرة بعد أخرى ، إظهارًا للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة

بعد أخرى ؛ يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى .

**• الوقوف بعرفة :**

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر بما ترى من ازدحام الخلق ، وارتفاع الأصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر ، اقتفاء لهم ، وسيرًا بسيرهم ، عرصات القيامة ، واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة ، واقتفاء كل أمة نبيها ، وطمعهم في شفاعتهم ، وتحريهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول .

وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل ، فتحشر في زمرة الفائزين المرحومين ، وحقق رجاءك بالإجابة فالموقف شريف .

**ولا ينفك الموقف عن طبقة من العلماء والفقهاء ، وطبقة من العباد والزهّاد ، فإذا اجتمعت هممهم ، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم ، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم ، وامتدت إليه أعناقهم ، وشخصت نحو السماء أبصارهم ، مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة ، فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيّع سعيهم ، ويدخر عنهم الرحمة تغمرهم .**

ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ، ويظن أن الله تعالى لم يغفر له ، وكأن أجتماع الهمم ومجاورة العباد والزهاد والعلماء هو سر الحج ، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد .

قال الدهلوي : « السر في الوقوف بعرفة أن اجتماع المسلمين في زمان واحد ومكان واحد راغبين في رحمة الله داعين له ، متضرعين إليه ، له تأثير عظيم في نزول البركات وانتشار الروحانية ..

وأيضا : فاجتماعهم ذلك لتحقيق معنى العرضة ، وخصوص هذا اليوم ، وهذا المكان متوارث عن الأنبياء عليهم السلام ، والأخذ بما جرت به سنة السلف الصالح أصل أصيل في باب التوقيت .

قال الدهلوي : إنما لم يشرع الوقوف بعرفة في العمرة ؛ لأنها ليس لها وقت معين ليتحقق معنى الاجتماع ، فلا فائدة للوقوف بها ، ولو شُرع لها وقت معين كانت حجة ، وفي الاجتماع مرتين في السنة ما لا يخفى » .

• **رمي الجمار :**

وأما رمي الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر إظهارا للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعا لأمله ، فإنْ خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ؛ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ، ويخيل إليك أنه فعل لا فائدة فيه ، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به ، فاطرده عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان .

واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة ، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى ؛ تعظيما له بمجرد الأمر من غير حظ النفس والعقل فيه .

إن كان صبري راحِلًا برحيلهم عَنِّي العِشيَّة فالغرام مُخَيِّمُ
قسما بهاتيك المشاعر بَـرَّةً لا بد منهم أنجدوا أم أتهمُوا

• ذبح الهَدْي :

وأما ذبح الهدي : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، فأكمل الهدي وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءًا منك في النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر ؛ كان فداؤك من النار أعم .

• زيارة المدينة :

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ﷺ – ولا يختار الحبيب لحبيه إلا أشرف البقاع – وجعل إليها هجرته ، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسننه ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل ، ثم جعل تربته فيها ، وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما ، ثم مَثِّل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته فيها ، وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيزة ، فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينة ووجل . ويرحم الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذي ما ركب دابة في المدينة وقال : أوقِّر أرضا دُفِن فيها رسول الله ﷺ .

وتذكَّر مشيه وتخطيه في سككها ، وتصور خشوعه وسكينته في المشي ، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ، ورفعة ذكره ، مع ذكره تعالى حيث قال تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ . حتى قرنه بذكر نفسه ، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته ، ثم تذكَّر ما منّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته ، واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضي الله عنهم ، ثم اذكر أنك فاتتك رؤيته في الدنيا ، وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر ، وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة ، وقد حال بينك وبينه قبوله إياك بسوء عملك كما.قال ﷺ : « يرفع الله إليّ أقواما فيقولون : يا محمد ، يا محمد ، فأقول : يا رب أصحابي ،

فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول بعدا وسحقا »[1] فإنْ تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن محبته ، وليعظم من ذلك رجاؤك ألا يحول الله تعالى بينك وبينه بعد أن رزقك الإيمان ، وأشخصك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بلْ لمحض حبك له ، وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره ، وإلى حائط قبره ، إذ سمحت نفسك بالسفر بمجرد ذلك لما فاتتك رؤيته ، فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة .

فإذا بلغت المسجد ؛ فاذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة ، وأنّ فرائض الله سبحانه وتعالى أول ما أقيمت في تلك العرصة ، وأنها جمعت أفضل خلق الله حيًا وميتا ، فليعظم أملك في الله سبحانه وتعالى أن يرحمك بدخولك إياه ، فادخله خاشعا معظما ، وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن .

هزّني الشوق إلى أرض التقى ... حيث مثوى المصطفى الهادي الأمين
ضاق قلبي بهوان ماحق ... وتولتني تباريح السنين
فَلْأسر في الركب موفور المنى ... خافق الروح إلى أرض الحنين
وأروي النفس من نبع الهدى ... وأندّي القلب بالحب المكينْ
يا رسول الله جئنا أمةً ... هدّها الخلْف وأدماها المجون
وسرى الخوف إلى أرْبُعها ... كولوغ الداء في القلب الحزين
نسيت تاريخها وانفلتت ... تسأل الأشباح عن معنى اليقين
وتراث الدين أضحى كومة ... من دمار وضياع وظنون
وشكوكا بين أطلال الهدى ... وحصيما[2] لهوى المستكبرين
يا رسول الله جئنا بددا ... سامنا العسف فنونا بالمئين
ضجّ من آلامنا وحش الفلا ... وتهادى في روابينا الأنين

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله : يا محمد يا محمد .
(٢) صغار الحصى .

كيف لا يهزك الشوق إلى المسجد النبوي ومنبره ، ورسولك ﷺ يخبرك بقدر منبره فقد قال ﷺ : « قوائم منبري رواتب في الجنة »[1].

ولله درّ القائل حين يبث لوعات الوجد في مسجد الرسول الله ﷺ ، ويذكر واقع الأمة وعطاشها .

طال انتظاري وبحر الدمع مندفع ... وذكرياتي هي البركان يستعر
والزائرون على أبوابك احتشدوا ... مدوا الأكف إلى مولاك وانبهروا
يبكون مجدا على التاريخ مزدهرًا ... وينشجون نشيجًا كله عِبرُ
أرنو إلى المنبر الميمون مذّكرا ... وكل من في رحاب البيت قد هدروا
أبكي على نفحات جلّ بارئها ... وشعشعات الهوى العذري تحتضرُ
ضج الحجيج أسىً وانساب مدمعه ... فضجّ من دمعه الأركان والحجرُ
شدوا الرّحال لمسجد طابة أُمَما ... أعشى خطاه الخنا المرذول والحذرُ
ضل العطاش طريق النبع وانتثروا ... يا ويحهم في فيافي البؤس قد نثروا
يا رب جيل الخطايا فارو ظامئه ... يا رُبَّ يوم به الآمال تزدهرُ

(١) صحيح : رواه أحمد، والنسائي، وابن حبان عن أم سلمة ، والطبراني في الكبير، والحاكم في المستدرك عن أبي واقد ، ورواه ابن سعد، وأبو نعيم في الحلية عن أم سلمة، وقال الهيثمي : فيه عند الطبراني يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف، وصححه الحاكم والسيوطي، والألباني في صحيح الجامع رقم ٤٢٨٨، والسلسلة الصحيحة ٢٠٥٠، عدَّ السيوطي هذه من خصائصه .. ورواتب يعني : مستقرة .

• زيارة رسول الله ﷺ :

وأما زيارة رسول الله ﷺ فينبغي أن تقف بين يديه وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره إلَّا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كانَ حيا ، فإن المس والتقبيل للمقام عادة الجهال الذين اتبعوا سَنَن النصارى واليهود .

واعلم أنه يبلغه سلامك وصلاتك ، فمثّل صورته الكريمة في خيالك ، موضوعًا في اللحد بإزائك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد قال ﷺ : « إن لله تعالى ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام »[١]. وقال ﷺ : « إن لله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد فليس من أحد يصلي عليّ إلا أبلغنيها »[٢].

هذا في حق من لم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الوطن ، وقطع البوادي شوقا إلى لقائه، واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم، إذْ فاته مشاهدةَ غرته الكريمة؟

وقد قال ﷺ : « من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشرا »[٣].

وقال ﷺ : « من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات ، ورفع له عشر درجات »[٤]. فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته .

ثم ائت منبر الرسول ﷺ ، وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر ، ومثل في قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر ، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار –

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والنسائيّ، وابن حبان، والحاكم عن ابن مسعود، وصححه الحاكم، وابن حبان والسيوطي، والألباني في صحيح الجامع برقم ٢١٧٠، وتخريج المشكاة برقم ٩٢٤.

(٢) حسن : الطبراني في الكبير عن عمار بن ياسر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢١٧٢ ، والصحيحة برقم ١٥٣٠ .

(٣) صحيح : رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

(٤) صحيح : رواه أحمد، والنسائيّ، والحاكم، والبخاري في الأدب عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٦٢٣٥ .

رضي الله عنهم - وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله بخطبته ، وسل الله عز وجل أن لا يفرق في القيامة بينك وبينه .

لله ما أحلاها صلاة بالروضة الزهراء .. هنا يخفق القلب بالوجد والمجد .. هنا صلاة خاشعة ساطعة .. هنا نجاء ودعاء وبث صامتَ حفيّ .